

لا أرى الكلمة غريبة على الموقف، فما كانت السيدة خديجة وهي من صميم قريش وجيرة الحرم، بحيث يفوتها شيء مما ماجت به بيئتها قبيل المبعث من تطلعات إلى تحول خطير رنا إليه حكماء العرب وحنفاؤهم وشعراؤهم، ومن إرهاصات عن نبي جديد حان مبعثه تناقلها الرواة والأخباريون عن رهبان النصارى في الشام ونجران، وأخبار يهود في يثرب وما حولها، شماليّ الحجاز.

ومكة على الخصوص، كانت المركز الذي تتلاقى فيه تلك التطلعات والإرهاصات، وتتجمع روافدها من هنا ومن هناك وهناك، لتصب حول البيت العتيق، وتحوم حول حىّ بعينه من أحياء قريش هو حى بنى هاشم بن عبد مناف بن قصي، وترنو إلى شخص بذاته من الهاشميين، هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم.

وقد كان لمكة من واقعها ورؤاها وذكرياتها، ما تضيفه إلى تلك الإرهاصات الوافدة من شمال وجنوب وشرق...

فمن عهد إبراهيم وإسماعيل، وبيتها العتيق مثابة الحج والعبادة، يرتفع منه الدعاء «لبيك اللهم لبيك» فتتجاوب به أوديتها والبطاح، وتخشع له جبالها الصخرية، وتعنو هامات البدو الصلاب أبناء الصحراء

ومع الزمن تأصلت حرمة ذلك البيت العتيق، ورسخت تقاليد إعظامه وطقوس إجلاله، ومنه أخذت قريش مكانة السيادة لجوارها الحرم المكي، واستأثرت بوظائف الشرف الدينية، وراثته عن جدها قصي بن كلاب المضرى العدناني^(١).

وإذا كانت مكة قد استرجعت بفداء عبد الله بن عبد المطلب، ذكرى الفداء الأولى لإسماعيل جد العرب العدنانية، فليست بحيث يفوتها غداة ليلة القدر، أن تربط ما بين محمد بن عبد الله، وإسماعيل بن إبراهيم، برباط نسجته يد الزمن على مدى قرون وأدهار... وتربطها كذلك، في وعى السيدة خديجة، بما آنست من شمائل زوجها وما رأت من ميله إلى التأمل والخلوة في غار حراء، وما عرفت من رفضه الأصنام التي تكدست في الحرم، ومن حيرته في أمر قومه: كيف ضلت عنهم أحلامهم فنسوا أنهم الذين صنعوا الأوثان بأيديهم، وجعلوا منها آلهة وارباباً مع الله!

(١) انظر ما استحدثته «قصي بن كلاب» من وظائف دينية للحرم، في مطلب (غلبة قصي على أمر مكة وجمعه أمر قريش) في سياق النسب الزكي من السيرة المشامية، مع الروض الأنف: ١٤٧/١